



الفصل الثالث

حول محور الدين^٣

العمل بالرؤيا

سؤال: هل الرؤيا مصدر حكم؟

الجواب: الرؤيا "من المبشرات" كما ورد في الحديث^(٥٩)، فالله ﷻ يسوق إلينا البشارات عن طريق الرؤى، وأرى أن هذا من باب الأفضال والألطف على غرار ما يُعطى للأطفال من الحلوى.

ولا شك أن للرؤيا حقيقةً ما، والسؤال عن العمل بها لا عنها، فلنُعن بموضوعه، ومن المفيد الإشارة هنا أيضًا إلى حكم العمل بغير الرؤيا من وسائل الاتصال بعالم الملكوت.

إن ساحة التكاليف هي "اليقظة"، وهذا يعني أن النوم والإغماء ونحوهما عوارض يرتفع بها التكليف، فليس فيهما ما يمكن أن تستند إليه الأحكام، والأمر والمأمور في هذا سواء، لذا لا يكفر من تفوه بكلمة الكفر في نومه، وكذا الإغماء علّة لرفع التكاليف الشرعية.

وعندما ننظر إلى المسألة من هذه الزاوية، يتعذر القول بأن ثمة قيمة موضوعية لبشارات الرؤى أو إنذاراتها إيجابية كانت أم سلبية،

فلا تُقبل دليلاً أو حجة ملزمة، والمقبول هنا أن في موافقة الرؤى للشرع الشريف وملاءمتها رسائل خاصة للرأي وقيمة ما لم تُعارض الكتاب والسنة وإلا فلا.

ولنفترض أن إنساناً تيسر له أداء فريضة الحج فلم يحجّ لأنه رأى رؤيا أن لا تحجّ، فهذا باطل قطعاً؛ فروياه هذه ليست دليلاً أو مستنداً شرعياً ألبتة؛ لأن فريضة الحج ثابتة بالكتاب والسنة، ويلزم كلّ من وجد إليها سبيلاً أدائها، وأعذار ترك الحج محددة مبينة في كتب الفقه المستمدة من الكتاب والسنة، ولو أن إنساناً رأى رؤيا بل مائة رؤيا خلاف هذا، فلا قيمة لها وعليه العمل بالأحكام الفقهية.

واستغلال الرؤى للإلزام الآخرين بشيءٍ ما خطأ فادح أيضاً، ومعناه معارضة النصّ حتماً؛ والذي يمكن أن يُسلم به هو أن الرؤى موجّهة لمن يراها فحسب في المباحات؛ ويستحيل القول بأن للرؤيا وزناً يساوي حكماً استنبطه المجتهد من الكتاب والسنة النبوية...

وما قلته في العمل بالرؤى ينطبق عندي على غيرها من طرق الاتصال بعالم الملكوت:

من ذلك أنه قد يتمثل سيدنا رسول الله ﷺ لإنسان فيلتقي به، ومن باب المحال نفرض أنه قال له أمراً يخالف الموازين الشرعية -هذا فرض محال وأجدني أرتجف وأرتعش من ذكره- فلا يجوز له العمل بقولٍ يعارض الموازين الشرعية، وليس له أن يعدّ لقاءه برسول الله حجةً ودليلاً. أجل، إن تعظيم سيد الأنبياء صلوات ربي

وسلامه عليه وتوقيره مسألة، وكون سنته حجةً ودليلاً واتباع حياته ونبوته مسألة أخرى، وإنما اخترتُ رسول الله مثلاً ليشمل الحكم مَنْ سواه بطريق الأولى، أي لو تمثل الأنبياء حقيقةً لإنسانٍ ما، وكذا الأولياء فالحكم لا يتغير، بل يتبع الرائي الضوابط الشرعية دون سواها ويبنى عليها.

ومنهم مَنْ يتوهم الاتصال بعالم الملكوت عن طريق الجنّ، وهنا أقول بلغة واضحة قاطعة: هذا ليس طريقاً ألبتة؛ فالجن مقارنة بالبشر أضعف وأقل قابليةً واستعداداً، وما يقولونه تسعة وتسعون بالمائة منه كذب، لهذا قد تكون القرارات التي تتخذ بناءً على كلامهم تسعة وتسعون بالمائة منها خطأً، والكهانة أيضاً صارت ظاهرةً في يومنا هذا، والكُهان أنفسهم محتاجون إلى مساعدة، لذا فتوقّع الفائدة منهم ليس إلا خداعاً للنفس.

وللجن قدرة على الظهور بأشكال وصور مختلفة، ولهذا السبب فليس ببعيد أن يخدعوا بعض الناس، فكم خدعوا واستغفلوا بهذا الأسلوب، وبلغ من خداعهم أنّ من أولئك المساكين من ظن نفسه المهدي، بل النبي.

ويلحق بهذا الموضوع المخاطر التي تحفّ بطريق الولاية أيضاً، وحسبنا الإشارة إليها لأنها تحتاج بحثاً مفصلاً.

إن ما يرد من مشاهدات أو معلومات من طرق الاتصال بعالم الملكوت كالرؤى وغيرها ليست أحكاماً تلزم الإنسان وتقيده شرعاً،

لا سيما إذا عارضت الموازين الشرعية؛ فهذه يمتنع الالتفات إليها قطعاً، وما ينبغي للمسلم أن يفكر في أمر كهذا أصلاً.

وهذا خشية أن يخسر المؤمنون في وقتٍ هو أدعى للكسب بأن يتنكبوا عن الصراط المستقيم -نسأل الله السلامة- سواء بسبب الرؤى أم حالات الواقعة أم باستخدام الجن والشياطين؛ فهذا "غلام أحمد" سقط في مأزق كهذا فخر، لقد بلغ ما بلغ في تعزيز الروح بقوة مميزة في الهندوسية وفلسفة اليوجا، ثم سلك الطريق نفسه ليثبت رفعة الإسلام، فضّل، وقضى ستة أشهر بلا طعام أو حاول ذلك، ليبرهن للبراهمة والبوذيين على رفعة الإسلام كما قيل.

ناشدتكم الله هل هذا هو السبيل لتبليغ الإسلام وبيانه؟ ثم قال غلام أحمد: "أنا المهدي، أنا الإمام المنتظر، أنا رسول!" ثم قال -حاشا- "أنا الله!" معتقداً بالحلول والاتحاد.

إنّ استخدام الجنّ والشياطين انحرافاً عن الصراط المستقيم. أجل، إن هذا الضرب من المسائل أي العمل بالرؤى، والركون إلى أحوال الواقعة، واستخدام الجن... إلخ دائماً ما تبدأ عادةً هكذا في حدود المشاعر والمقاصد الإسلامية الزهية، ثم إذا بكم قد زلتم، ولمزيدٍ من الإيضاح إليكم مثلاً:

إن اتباع الكتاب والسنة هو الواجب، ولو رقيتم إلى السماوات مثلاً، والنقيتم بسيدنا رسول الله ﷺ فوق الزمان والمكان، وحظيتم

برؤية تجليات الحق تعالى عياناً، فلا يعادل شيء من هذا تطبيق السنة السنّية.

إذاً علينا ألا نخرج عن عموم دائرة المسلمين، وأن نسير على أرض ثابتة، ونقول: "لأن نكون جنوداً أفضل من أن نكون قادة"، وليكن أحدنا فرداً من الناس، فهذا سيدنا عمر رضي الله عنه أثنى عليه أحد بعدما أصيب قائلاً: "أَبَشِرْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِبُشْرَى اللَّهِ لَكَ، مِنْ صُحْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَدِمَ فِي الْإِسْلَامِ مَا قَدْ عَلِمْتُ، ثُمَّ وَلَيْتَ فَعَدَلْتُ، ثُمَّ شَهَادَةٌ"، فتبسم عمر الفاروق بمرارة فقال: "وَدِدْتُ أَنَّ ذَلِكَ كَفَافٌ لَا عَلَيَّ وَلَا لِي" ^(٦٠) أي وددتُ أنني خرجتُ من الدنيا كما دخلتُ فيها، لا أجر ولا وزر؛ وأنا الفقير أيضاً لا أتمنى لنفسى سوى هذا.

إن الله لن يتخلّى عنكم، وسيمنُّ عليكم بما منَّ به على الأولياء إن اصطبغتم بالمشاعر الخالصة، وتمسكتُم بـ"الكتاب والسنة"، وجعلتم الدساتير الماسية لـ"الشريعة الغراء" ومعالم الطريق المستقيم دستوراً للحياة.

إن الكتاب والسنة بين أيدينا، فلا شيء يؤخذ به مما لم يصح في ديننا، وحسبكم من الرؤى التي ترونها وأحوال الواقعة أن تطير بكم وتغدو حافزاً لِهَمِّكُمْ.

سبل الخلاص من الذنوب

سؤال : ما الذي ينبغي مراعاته عندما تقع في الذنوب ونريد الإقلاع عنها والتوبة منها؟

الجواب: التوبة أكبر حصن لنا لمواجهة الذنوب، وثمة أمور لا بد من مراعاتها في هذا لما لها من أهمية عظيمة في حياتنا القلبية والروحية:

١- الندم على فعل الذنب

ولهذا الأمر صلة قويّة بحالة الإنسان الروحية وقتئذ، أي عندما يسجد العبد نادماً على ما اقترف، ويجأ ويكي، ويبتهل متضرعاً يرجو مغفرة ذنبه، ولا يقنع بالآهات والبكاء والندم، ولا تُطفئ الصرخات نار الفؤاد، فعسى أن يكون هذا الحزن الذي يزلزل جوانبتكم أرجى لقبول التوبة وأمضى لها عند الله تعالى.

قد تمر بالسوق، فيقع بصرك على الحرام خطأ، فتحدّث نفسك قائلاً: "آه! ماذا فعلتُ؟! زلّ نظري إلى الحرام واركتبت إثماً بينما ينبغي أن أتوجّه إلى الله تعالى في كل لحظة بعدد ذراتي، وقد كان بوسعي أن أغضّ بصري، أو أختار طريقاً سليماً آمناً ولو كان

طويلاً... إلخ"، ثم تسارع إلى مصلى هناك لتخرّ ساجداً تثنّ وتتاوّه، فإن ضاقت عليك الدنيا من هذا الحزن الذي أحاط بقلبك، لم يبقَ بينك وبين التوبة الحقيقية إلا ذراع. أجل، التوبة في الأصل ندم وحسرة وحرقة في القلب.

والمهم هو أن تستشعر أن العيش في الذنوب كالعيش مع العقارب والثعابين، وتلك هي نظرة المؤمن للذنوب، وهكذا فلتكن، وإلا فهو شكٌ بعاقبة الذنوب وعقوبتها.

إن من الأهمية بمكان إظهار الندم على فعل الذنب بتسارع دقات القلب وسرعة تدفق الدم في الأوردة وتغير دورته.

٢- أجل الذنب لا بد أن يكون قصيراً

إذا ما زلّ أحدكم في موضع ما، وارتكب ذنباً وانزلت قدمه في مستنقع الذنوب، فلينهض من فورهِ، دون انتظار، وليتطهّر بالتوبة والاستغفار، ليتطهّر ولا يؤجّل ألّبتة؛ فمن ذا الذي يملكُ سنداً أو وثيقةً تؤكّد أنه لن ينتقل إلى ربّه بعد ساعةٍ وهو يحمل وزراً على ظهره أثقل من جبل قاف؛ إنّ الأرواح الطاهرة تجافها الراحة، ولا تعمّص لها عين مالم تتطهّر مما ارتكبه من الذنوب.

إنّ إطالة عمر الذنب ولو ثانيةً يضُرُّ صاحبه ولا ينفعه، والأنكى أنّه توقيرٌ لسوء الأدب الذي ارتكبه المذنب في حق الله تعالى، فلا حقّ لأيّ ذنب أن يعيش ولو ثانيةً؛ إذ إنّه سيغدو ثعباناً ساماً يقرض القلب ما لم يُمَح بالتوبة فوراً، وإذا ما تكدّر القلب مرّةً تهياً لأكدارٍ

أخرى، وهكذا يتردى الإنسان في دائرة فاسدة، ويولد كل ذنب ذنباً آخر إلى أن يتجلى سرُّ الآية الكريمة: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ: ١٤/٨٣).

ولذلك فمن الأهمية القصوى جذب مشاعر الناس وأفكارهم إلى هذه الساحة دائماً، وتوضيح تلك الحقائق لهم، وتحذيرهم من الذنوب ليكونوا يقظين فطنين لها؛ بل إننا حتى لو تمتعنا بقوة الولاية لكان علينا أن نظهر لهم الوجه القبيح للذنوب ما أمكن وأن نصرِّفَهُمْ عنها.

أجل، ها هم أولاء ذوو القلوب الفطنة اليقظة والأرواح الحساسة كأني بهم يشتمون رائحة كريهة يجلبها الذنب.

٣- بُغْضُ الذَّنْبِ

إن بُغْضَ الذَّنْبِ من أهمِّ عوامل التوبة عن الذنب، وعدم بغضه يثبِّط العزم عن الفرار منه فرار الناس من الثعبان والعقرب، فإن عجز الإنسان عن الفرار والتقوى استحالَت توبته وعزمه وتصميمه على عدم ارتكاب ذلك الذنب مرةً أخرى، وكما يُؤُولُ وينوح من انكسرت له زهرية كريستال نادرة جداً فكذلك الأمر هنا أيضاً، والمقصود أن مصباح الحياة الذي بأيدينا يتسخ وينكسر مع كلِّ ذنبٍ نرتكبه؛ وفي هذه الحالة ينبغي على الأقل أن نشعر بالحزن والأسى على ما نرتكب من الذنوب بقدر الحزن والأسى الذي نشعر به عند انكسار زهرية الكريستال، وإلاَّ عدَّ ذلك استخفافاً بالذنب وإهمالاً.

٤- التوازن بين الذنب والتوبة

لا بُدَّ لكلِّ ذنبٍ من توبةٍ بقدر عمقه وقبحه ووقاحته؛ لأنَّ الوقوع في الذنبِ كالتردي في بئرٍ مليءٍ بالزِّفتِ، فالسقوط في بئرٍ كهذا يسير، أمَّا الخروج منه فعسيرٌ جدُّ عسير.

٥- الاعتراف بحقيقة الذنب

إنَّ كلَّ خاطرةٍ تعترضُ بها قلوبُنا على حكم الذنبِ أقلُّ ما يُقال فيها إنَّها ذنبٌ يعدل ارتكاب ذلك الذنب، فلو حدَّث زان نفسه من حينٍ إلى آخرٍ قائلاً: "لماذا حرَّم الله الزِّنا؟"؛ ولو أنَّ امرءًا لا يُفرِّق بين الحلال والحرامِ قال في نفسه: "ليته لم يُشرعْ شيءٌ اسمه حرام، كم سيكون الأمرُ ممتعًا حينئذٍ!؛ فهذه ذنوبٌ أعظمُ من ارتكاب الذنوبِ نفسها.

إذا لا بُدَّ أن نتصدَّى للذنوبِ وأن نصمُدَ أمام أنفسنا قائلين: "أيها الذنب سعيك هباء، فالأبواب موصدة أمامك والدخول مستحيل!".

ولبديع الزمان في هذا الموضوع تشبيهٌ ذو مغزى عميق؛ يقول: "اجتنبوا -يا إخوتي- الأسباب التي تقدح بالإخلاص وتثلمه كما تجتنبون العقارب والحيات"^(٦١)؛ وعدوله عن لفظ الأسد أو النمر هنا إلى لفظ العقرب والثعبان لافتٌ للنظر جدًّا؛ لأنَّ الأسد والنمر يهجمان ببسالة وإقدام، فنشعر بهما قبل أن يهجمَا فنحتاط؛ والعقرب

(٦١) بديع الزمان سعيد النورسي: اللمعات، اللمعة الحادية والعشرون، ص ٢٢١.

والثعبان والحية على خلاف ذلك؛ إذ لا يُعرف من أين ومتى تَدَهْمُنَا؟ وهكذا الذنب، فهو غدار مثل العقرب والثعبان.

والحاصل أنه لا بُدَّ أن تكون اليقظة الدائمة إزاء الذنوب شعار المؤمن، وليعلم أن هذا من الوفاء بعهد الله تعالى.

يمكن أن ننظر إلى هذه المسألة في ضوء الحديث الشريف: "أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ" (٦٢).

معلوم أن كلمتي "ذنب" و"ذنب" من جذر واحد، والذنب الإثم، والذنب الذليل، وعلى هذا فالعبد الذي يقول "رباه أذنبت" كأنه يقول: "اللهم اني ثعلب بذنب، أو عقرب يلدغ، ها أنا ذا قد ترديتُ إلى هذا الدرك"، أي كأن العبد باعترافه بذنبه يقرّ أنه بوقوعه في الذنب قد حقر وأسفَّ بالمستوى الإنساني والمقامات الإنسانية الموهوبة له، واعترف بأنه أعرض عنها وتبنّى البهيمية بإرادته، فتردى إلى هذه الدركة.

وأما من ارتكب ذنباً ولم يشعر به، فالحقيقة أنه مُنِي بالصفعة الواردة في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ (سُورَةُ الْأَعْرَافِ: ١٧٩/٧)، وصار أدنى من الحيوان رتبة؛ ولهذا الحكم مثال بديع دلت عليه نتائج استطلاع رأي الشباب في أوروبا في السنوات الماضية، فلقد أظهر الاستطلاع أن سمات الشباب الأوروبي هي سمات كلب ضال في الشوارع؛ ولا غرو فكلُّ طريقٍ غير طريق الحقيقة يؤدي إلى نتائج مجافية للحقيقة جذرياً.

رسولنا والوفود الزائرة

سؤال: كان رسولنا ﷺ يُعنى أئما عناية باستقبال وفود بلاد وقبائل الجوار لا سيما بعد فتح مكة، وكان يرغب في أن يقتدى بسنته هذه، وأن يواظب عليها من بعده، وأكد دعوته في وصاياه في آخر حياته؛ فما الحكمة؟ وما العبر والدروس المستفادة إذا ما أسقطنا هذا الأمر على واقعنا اليوم؟

الجواب: إن عناية رسولنا ﷺ هذه سلوك جليل، وعلينا أن نعنى بهذا الأمر أكثر فأكثر؛ لذا ينبغي الوقوف عنده حتمًا.

لقد استمر اهتمامه وحفاوته تلك ﷺ على أعلى مستوى، لا بالوفود القادمة إليه شخصيًا فحسب، بل بالأفراد القادمين لاعتناق الإسلام أيضًا؛ فمثلاً حظيت النخبة من أهل مكة مثل خالد بن الوليد وعمر بن العاص وعثمان بن طلحة ؓ باهتمام رسول الله ﷺ إبان وصولها إلى المدينة، حتى إن أبا بكر وعمر بن الخطاب ؓ لم يحظيا بمثل ذلك يومئذٍ.

إذ قال رسولنا ﷺ لخالد رضي الله عنه: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَاكَ، فَذَكُّتُ أَرَى لَكَ عَقْلًا رَجَوْتُ أَلَّا يُسْلِمَكَ إِلَّا إِلَى خَيْرٍ" ^(٦٣)؛ وسرعان ما مدحه فلقَّبَه: "سيف الله" ^(٦٤)...

وكم نال عمرو بن العاص رضي الله عنه من المسلمين، حتى إنه لطالما كاد الإسلام بدهائه، ولما اعتنق الإسلام، ووصل المدينة استقبله رسولنا ﷺ بحفاوة، ولم يذكره حتى بأصغر أمر من سوابقه، ولما قال عمرو: "يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَبَايُكَ عَلَى أَنْ تَغْفِرَ لِي مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِي" قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يَا عَمْرُو، بَايِعْ، فَإِنَّ الْإِسْلَامَ يَجِبُ مَا كَانَ قَبْلَهُ" ^(٦٥).

وهذا جرير بن عبد الله البجلي: "دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ أَصْحَابُهُ، فَتَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَلَمْ يَرَ مَوْضِعًا، وَضَنَ كُلُّ رَجُلٍ بِمَجْلِسِهِ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِ، فَتَلَقَّاهُ بِنَحْرِهِ وَوَجْهِهِ، فَقَبَّلَهُ وَوَضَعَهُ عَلَى عَيْنَيْهِ، وَقَالَ: أَكْرَمَكَ اللَّهُ كَمَا أَكْرَمْتَنِي، ثُمَّ وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَإِذَا أَنَا كَرِيمٌ قَوْمٌ فَلْيُكْرِمْنِي" ^(٦٦).

أما استقباله عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه بكلمات ملؤها الحفاوة، فهي لوحة ذات عبرة متميزة جدًا في هذا الموضوع.

(٦٣) الواقدي: المغازي، ١/٢٧٤٩؛ البيهقي: دلائل النبوة، ٤/٣٤٩.

(٦٤) صحيح البخاري، فضائل الصحابة، ٢٥/٢٤٦/٣٧، مسند الإمام أحمد، ٢٥٨.

(٦٥) مسند الإمام أحمد، ٣١٥/٢٩.

(٦٦) الحاكم: المستدرک علی الصحيحین، ٤/٣٢٤؛ أبو نعيم: حلية الأولياء، ٦/٢٠٥.

أجل، إن هذه الشُّنن من المبادئ الثابتة عند رسولنا ﷺ، وفي ضوئها كان يعامل الوفود والأفراد القادمين دون فرق؛ وهي زاخرة بغايات كثيرة ملأى بالحكم:

أولاً: هؤلاء القادمون حديثاً، ولم تطمئن نفوسهم للإسلام تماماً، كان يساورهم القلق والخوف من تغيير الدين، ولو لم يعثروا على مناخ دافئ آمنٍ يخلص أنفسهم من المخاوف لربما اتجهوا وجهة أخرى، وهي خسارة كبيرة لهم أنفسهم، إذا إن عنايته وحفاوته العظيمة ﷺ بمن وفدوا يتنسمون عبير نسمة من الإيمان كانت حصناً لهم من قرارٍ خاطئ كذاك، وهذا من الأمور التي ينبغي الوقوف عندها والعناية بها أيما عناية اليوم وغداً.

ثانياً: كان في الوفود القادمة أناسٌ يحظون عادةً بالاحترام والتبجيل في أقوامهم وقبائلهم، إنهم أناس اعتادوا على مثل هذا الاهتمام وتلك العناية في مجتمعاتهم؛ فوجب أن يحظوا بمثل ذلك التقدير والعناية حتى لا يستوحشوا من المجتمع الجديد الذي وفدوا إليه، أي من شأن هذه الحفاوة والعناية أن تشعرهم بالألفة وترفع عنهم كُرْبَة الغربة.

ثالثاً: كان معظم تلك الوفود رسمياً، ولما صار الإسلام دولةً كانت القبائل والدول المجاورة ترسل وفودها إلى المدينة لتبحث الأمر بحسب رؤيتها هي، ولم تكن تلك الوفود من عامة الناس؛ إذ كان لغالبهم فلسفة حياة وتقديرات خاصة للأمر، ومن المسلم به أن

يرجعوا إلى قومهم بانطباعات خاصّة عن زيارتهم تلك، وكان لأرائهم الجديدة تأثيرٌ بينَ على بلادهم وقبائلهم؛ لذا كان من الضروريّ أن يتزوّد هؤلاء برؤية إيجابية، وهي تأثرهم عن قربٍ بالاستقبال الحارّ والحفاوة بهم.

رابعًا: كان أهل الكتاب يعرفون أخلاق رسولنا ﷺ وشمائله؛ لأنها مذكورة في كتبهم، ومن الوفود من يأتي ليتقصى حقيقة هذا الأمر، أمّا رسولنا ﷺ فكان واثقًا من نفسه؛ فهو الرسول الذي بشرت به التوراة والإنجيل، ومن وسائل ترغيب المخاطب برسالته تقرّبه منه كي يشهد الأمر عن قرب.

أجل، كان رسول الله يُدنيهم منه، وكأنه يقربهم من رؤية علامات النبوة وأماراتها، فكانت حاله وأطواره المباركة سداً تحطّم وتفتّت عنده الشكوك والظنون التي من شأنها أن تمزّق كل شيء، وإذا بأكثرية الوافدين يغيّرون أحكامهم المسبقة، ويستعدون للقيام بتبليغ الإسلام إذا ما عادوا إلى بلادهم.

ربط المسألة بواقع عصرنا:

علينا أن نقرّ أنه لا أحد ألبته يستطيع أن يقوم بسلوك رسول الله ﷺ نفسه؛ فلا طاقة ولا قوة لأيّ شخصٍ على فعل هذا، تدبّروا الأمر! لقد حمل رسالة القرآن الكريم، وهي كما جاء في القرآن حِمْلٌ عظيم ثَقِيلٌ تتصدع منه الجبال، لقد صمد صمود الرواسي،

فلم تهزّه أية حادثة ألبتة، ولم يُثْنِه أيّ تصرّفٍ يخالف مبادئه، إنا قد نمّل ونضجر، أمّا هو ﷺ فيستحيل أن تردّ عليه الخواطر في أنماطٍ من الضعف كهذه.

وعلى هذا فمن الصعب أن نطبّق ونتمثّل تمام التطبيق والتمثّل مودّته وحفاوته ﷺ في استقباله الوفود، أو في تقبّله بعض الأشخاص، وتناسيه عيوبهم السابقة كلها تماماً، ولكن لا مناص من فعل ذلك بقدر طاقتنا، فالتقاعس عنه فيه حطٌّ من قدر هذه الخدمة العالمية، وخيانة لهذه الغاية السامية.

وقد عُنيَ الرسول ﷺ في آخر وصاياه بنمط استقبال الوفود والحفاوة الواجبة في هذا الأمر، وأشار إلى تفاصيل هذه المسألة وأبعادها المستقبلية، وهو أمر مهمّ جدًّا للمستقبل القريب والبعيد.

وهذا لأنّ الرسالة لم تنتشر بعدُ خارج جزيرة العرب، وما رسائل بعض الملوك وهداياهم إلا مودة وحفاوة شخصية؛ وسيأتي يوم تضيّف "الدولة الإسلامية" مئات بل آلاف الوفود لترامي أطرافها المنتشرة في أنحاء العالم كافّة، وعليها أن تكرم وفادتهم، ورسول الله ﷺ هو مَنْ سنّ الأصول والأساليب اللازمة للقيام بهذا الأمر الخاص بالمراسم، والحقيقة أنه ما من معضلة وقعت في عقدين ونيّف إلّا كان لها عنده حلّ، ومنها استقبال الوفود.

مسألة المساواة بين الرجل والمرأة

سؤال: كثرت الأقاويل في السنوات الأخيرة عن مسألة المساواة بين الرجل والمرأة، فماذا عنها في الإسلام؟

الجواب: لنحدّد أولاً معنى "المساواة" قبل بحث المسألة:

إذا أُطلقت كلمة المساواة فإنها تعني الوحدة في الطبيعة والصفة والقيمة والأبعاد، وعدم الاختلاف في كل منها، وعدم التفريق في الحقوق مطلقاً.

تُرى ما هي مكانة المرأة للرجل في ضوء هذا التعريف؟

أ- اختلاف الفطرة:

من كلّ شيء في الكون خلق الله زوجين، ولا يمكن الادعاء بأنّ كلّاً منهما مساوٍ للآخر في كلّ شيء، ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (سورة الذّاريات: ٤٩/٥١).

إنّ كلّ شيء من الذرات إلى النباتات، ومنها إلى الذكورة والأنوثة في الحيوانات والبشر أزواج بعضها يحتاج إلى بعض، فالموجب محتاج للسالب والإلكترون للبروتون، والليل للنهار، والصيف للشتاء، والأرض للسماء، والرجل للمرأة، والمرأة للرجل؛

وثمة كثير كثير من أزواج لا قبلَ لنا بمعرفتها الآن، وقد نعرف بعضها بتقدّم العلم والتقنية إن يسّر الله لنا.

وهكذا خلّق المرأة، خلقها الله كما خلق البروتون للإلكترون، والسالب للموجب، والبذرة الأنثى للبذرة الذكر، فتكوّنت من تلك الأزواج وحدة واحدة؛ وكما أن الإلكترون لا يساوي البروتون، والسالب لا يساوي الموجب؛ فالمرأة أيضا لا يمكن أن تساوي الرجل، وهذا من قوانين الفطرة التي لا تتغير؛ هذا وكل ما سوى الله الأحد قائم بغيره، والقائم بغيره لا يستغني عن الغير في بقائه، فالرجل والمرأة ناقصان يجتمعان معاً؛ فيكملان بعضهما، ويشكلان وحدة واحدة، وهذا هو الأصل في كل مخلوق.

فالرجل والمرأة ليسا متساويين، بل هما متكاملان، وهي حقيقة عبّر عنها رسول الله ﷺ بقوله: "إِنَّمَا النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ" (٦٧).

وكلمة "شقائق" لغة: جزء الكلّ المقسوم نصفين تماماً، أي إنّ كلّ جزءٍ من الجزأين اللذين يمثلان الكل الواحد "شقيق" للآخر، وبناءً على هذا فإنّ الرجل والمرأة نصفان متساويان من حيث الإنسانية، غير أنّه لا أحدٌ فيهما عينُ الآخر ألبتة؛ أي إنّ فطرتيهما وبنيتهما الروحية والنفسية متباينة كلّ التباين، ويستحيلُ أن تساوي المرأة الرجل أو الرجلُ المرأة نفسياً وجسدياً؛ أمّا بيولوجياً فالرجل ليس أكثر تطوراً من المرأة شكلاً، والعكس بالعكس، فعلى كلّ إنسانٍ مؤمناً كان

أم غير مؤمن أن يدعَ أوهامَ المساواة، ويرضى بواقع الرجل والمرأة كما هما، لأنه لا يدَ لأحدٍ من البشر في اختلاف النوع.

ناهيك أنه يمتنع القول بوجود مساواة كاملة، ليس بين الأجناس المختلفة فحسب، بل بين الأجناس المتشابهة أيضًا؛ والسعي لتحقيق أُمْنِيَّةٍ كهذه سعيٌّ لتغيير قوانين الفطرة، وهذا النوعُ من الجهود هباءٌ وعبثٌ محضٌ، وليس في اختلاف خِلْقَةِ النِّسَاءِ هذه ما يقتضي استحقاقهنَّ وازدراءهنَّ، بل العكس هو الصحيحُ، فالحقُّ تعالى يقول: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ (سُورَةُ الْأَعْلَى: ٣/٨٧)، وهو مَنْ خلق الرجل والمرأة "في أحسن تقويم"، وأرشدتهما إلى سبيل الرِّفْعَةِ والوصول إليه، وهو من جعل كلاً منهما مكملاً وحصناً ولباساً للآخر.

ب- اختلاف الوظيفة:

بيّنّا أنّه لا يمكن أن تساوي المرأة الرجل في الفطرة وكذلك في الوظيفة؛ فتكليف المرأة بوظائف الرجل ظلمٌ يَبِّنُ لها؛ لأنه اتضح وضوحاً لا سبيل لإنكاره أنّ المرأة جسدياً وبيولوجياً ونفسياً تختلف كثيراً جداً عن الرجل.

والاختلاف في بعض الحقوق والواجبات الناجمة عن اختلاف الفطرة أمرٌ مسلّمٌ به، فالرجل مثلاً أقوى من المرأة وأقدر، وما أصعب أن تقوم المرأة بما يمكن أن يقوم به الرجل في هذا! وهذا ليس نقصاً في المرأة البتة، والمرأة أكثر شفقةً ورحمةً وظرفاً وعاطفةً، ولا يمكن للرجل أن يباريها في هذا، لقد زُوِّدَ كُلُّ منهما بِطَاقَاتٍ تقتضيها

وظائفه، وتلك هي العدالة والنَّصْفَةُ حقًّا حقًّا؛ فالصوابُ دراسةُ كلِّ من الرجل والمرأة على حدة في ضوء فطرتهما، وتقييم أمرهما بناءً على ذلك، لا على أساس المساواة بينهما.

أجل، إنَّ للمرأةِ حقوقًا ووظائفَ معيَّنة تناسب خلقتها وقدراتها، وإذا عملت فيما خلقت له فالحصول على نتائج أفضل وأجود أمر ممكن.

إن المرأة هي التي تلد الأجيال وتربّيها، وتقدّم للبشرية أفرادًا أخيرًا بيدها المباركة الفيّاضة، لا سيما أنَّ الله زادها إحسانًا، فمتَّعها بالشفقة لتربية الأجيال؛ فهي بهذا صرّح جدير بالتقدير والاحترام بين كل أفراد العائلة، فهي في بيتها المربيّة المعلمة القيّمة منبع الطمأنينة، يطمئن الرجل عندها، وينشأ الطفل على صدرها الحاني وينمو ويتعرّع حساسًا عاطفيًّا شفيقًا سليم الفكر، وإذا عاشت عفيفةً تحصّن الطفل في كنفها بعيدًا عن التفسخ والانحلال، وعُصم المجتمع من التآكل والاضمحلال.

أجل، إن كلّ الألفاف التي منحها بعضُ الخلقِ للمرأة باسم المساواة ليظلُّ شاحبًا أمام الألفاف الإلهية التي وهبها الحق تعالى إياها، بل كلّ ما ستُمنحه من حقوق وإحسان بدعوى المساواة ستكون مضحكة تافهة كمن يعلّق ميدالية نحاسية على عنق من تزوّج بميداليات ذهبية من رأسه إلى أخمص قدميه.

أجل، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَسَا المرأةَ ملابسَ زينةٍ كتلك، وكلُّ لباسٍ ستلبسه من بعد ما هو إلا كسْرَجٍ أو ثياب خيش.

لقد أعطى الله عَزَّ وَجَلَّ كلَّ ذي حقٍّ حَقَّهُ، وبهذا صانَهُ عن أن يكون طاعياً أو هُزْأَةً، وكلُّ حقٍّ يُمنحه بعد هذا ظلمٌ وإجحافٌ.

وإذا كانت المرأة ستضطلع بعمل، فلا بُدَّ أن يكون ملائماً لبنيتها الجسدية والنفسية والروحية، أمّا تكليفها بما لا تطيق من أعمال وتوظيفها في أعمالٍ تُخرجها عن فطرتها فهو أمرٌ لا علاقة له بالمساواة ولا بالمنطق الإنساني، بل العكس هو الصحيح؛ إن عدواناً كهذا فيه سلبٌ لكثيرٍ من حقوق المرأة.

وما أبدعَ تعبيرَ الحديثِ النبويِّ عن هذا الأمرِ وأعظمَ وقَعَهُ:
 "بَيْنَمَا رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى بَقَرَةٍ تَفَتَّتْ إِلَيْهِ، فَقَالَتْ: لَمْ أُخْلَقْ لِهَذَا، خُلِقْتُ لِلْحِرَاثَةِ" (٦٨).

والخلاصة أن لكلِّ شيءٍ غايةً في الخلق، ولا بد من تكليفٍ كلِّ مخلوقٍ فيما خُلِقَ وتأهَّلَ له، حتى تسودَ العدالة الحقيقية.

مصعب بن عمير رضي الله عنه

سؤال: ما خصائص شخصية مصعب بن عمير رضي الله عنه؟

الجواب: لم يكن مصعب بن عمير رضي الله عنه أجَلُ الصحابة الكرام، ولا شك أنه أدى في حياته السَّنيَّة رسالةً تُعَدُّ أعظم الصحابة، وفي هذا عبرة لنا لتذكَّر أنَّ الله تعالى منَّ على الإسلام في فترات معيَّنة بأناس كهؤلاء، أغلَّبهم لا نظيرَ ولا ندَّ له، ولو عاشوا في عصرنا أو في أيِّ عصرٍ آخر لما استطاعوا أن يؤدُّوا بتلك الطمأنينة ما أدَّوه من رسالات يومئذٍ، لقد كان مصعب بن عمير صحابياً عظيماً جداً لا يقلُّ عمَّن حملوا رسالات تاريخية أمثال حمزة وعبد الله ابن جحش رضي الله عنه.

أجل، لقد كان سيدنا مصعب بن عمير وحمزة وعبد الله ابن جحش رضي الله عنه مثالَ البطولة والخلود في الصحابة الفضلاء؛ وهل كان هؤلاء فحسب؟ كلا ألبتة.

كان من البواسل الذين أرسوا أسساً يبنى عليها من بعدهم من الدعاة إلى يوم القيامة، وبهذا كُتِبَ له الخلود في صدورنا ومشاعرنا وفكرنا، فما ينبغي ونحن نبحت في حياة أمثال هؤلاء أن ننسى رسالاتهم التاريخية ألبتة.

هذا ولم تجد سهام الحرام إلى عَيْني مصعبٍ سيلاً، ولا عرف زيغ الجاهلية، أي إنه يوم أن تفسى الحرام في مكة حتى داخل البيت كان منجذباً لمفخرة الإنسانية وجاذبيته القدسية، ويطوف حول نوره طواف الفراش حول النار، وما أَلَمَّ بحرامٍ قطُّ، ليس هذا فحسب بل كم من مشاقِّ وأزماتٍ وهمومٍ ومعاناةٍ كانت له رَصداً.

أجل، كان يمرّ بأكثر فترات مكة معاناةً ومحنةً وما كان يُعير سمعه لتهديدات أمه ألبته، ويسعى دأباً ليحافظ على قربهِ من سيدنا محمد ﷺ، فسمّا به هذا القربُ إلى درجة التخلُّق بـ"الأخلاق العالية"، بل بلغ به قمة الإنسانية؛ فرسول الله ﷺ لما أُتِيَ به إليه كان لا يزال طينةً يسهل تشكيّلها، فوضعه في قالب خاصّ، وشكّله كما أراد.

مصعب بن عمير ؓ هذا هو الرجل الكُفءُ لمهمةٍ شرح المنهج القرآني الماسي على ضوء قاعدة "الظهور على المدنيين المثقفين إنما هو بالإقناع لا بالإجبار..."^(٦٩). أجل، إنه عندما انعدمت الحكمة واختل توازن القوى وسادت القوة الغاشمة وغابت حرية التعبير استطاع أن يتصرف بحِكمة وحِرفية أدّى بها مهمة التبليغ والإرشاد على أكمل وجه، وكأنه -إن جاز التعبير- قد بُرمج على هذا الأمر، لم يكن نموذج مصعب بالعضوب الذي يرتفع ضغطه فجأةً وينهزم أمام مشاعره ليطلق صرخات وصيحات، ويفرّ من الميدان إذا أعزل الأمر، بل العكس هو الواقع: إنّه قوي الإرادة، يعرف كيف يُسكِنُ

الغضوب دون أن يغير نهجه وسلوكه وإن بُصق في وجهه، أي إنه كان إنساناً كاملاً في التوازن والفكر والإرادة.

ترك كل شيء في مكة فجأةً، وكان بوسعِه أن يعيش في رغد، فهو وحيد أبويه، ثم اختار بمحض إرادته سبيلَ سيد الأنبياء الشاقِّ، فدلَّ هذا أنَّ إرادته هذه هي أهمُّ خصائصه، ما قاربَ خمراً، ولا قارف امرأةً قطُّ، وكان يعرف كيف يساير أمه ويعاملها دون أن يكسر خاطرهما أو يؤذيها رغم كلِّ ما كان منها، وكان يحرص على أن تكون صلته برسول الله ﷺ قويَّةً عميقةً حيويَّةً دائماً.

وهذه السلوكيات كلها تقتضي إرادةً كما تبين، وقد نجح فيها ﷺ، كان فخر الكائنات ﷺ خبيراً باختيار وتقييم من يكل إليهم المهام، وهذه خصيصة لا نلبث إلا أن نشهد بين يديها أنَّ "محمدًا رسول الله"، وقد اختار رسول الله ﷺ مصعبًا لمهمة التبليغ والإرشاد فأرسله إلى المدينة، اختير مصعب وفي القوم أبو بكر وعمر وعليٌّ ؓ، فاستنبت ﷺ الطمأنينة في القلوب بأسلوبه الجادِّ، ولم يساوره أيُّ نوع من الهلع والدُّعْرِ في المدينة، وهكذا شرُفَّت بالإسلام قاماتٌ سامقةٌ مثل أسيد بن خضير وسعد بن معاذ وسعد بن عباد ؓ.

أجل، كان ﷺ داعيةً حقًّا، اطلع على ما وراء الأشياء، مستعدًّا للقاء الموت مستبشِّرًا به؛ وقد قضى حياته وختمها على هذا المنهج، ولما استشهد يوم أحد لم يجدوا ما يكفونونه به ويغطي جسده. أجل، لم يجدوا، فكفَّن نصفه بمئزرٍ كان عليه، وسائرُه نبات الإذخر، ثم دُفِن.

مصعب بن عمير رضي الله عنه صاحبُ هذه الحالة الرُّوحية لما قطعت يده اليمنى -وهو يقاتل عن رسول الله ﷺ- أخذ اللواء باليسرى، ففُطِعت، فحنا عليه بعضديه، ومضى يقارع سيوفاً أشهرت حقدَها وبغضها في وجه رسولنا حتى سقط شهيداً^(٧٠)، وواضح من هذا أن حياته تدور في فلك الإرادة دائماً، وتذعن للمشيئة الإلهية، إنها حياة اكتنفها الشعور القائل: "أنعم الله عليّ بهذه الإرادة، فلا بد أن أناضل من أجلها في حياتي كلّها".

وحمادى القول أن مصعباً -الذي من معاني اسمه الصعوبة والمشقة والعقبة المنيعة- قد استطاع بفضل الله تعالى أن يجتاز كلّ عقبة وعائق عرَضَ له، وانتقل إلى رحمة الرحمن الرحيم، وتوجّ نضاله برتبة الشهادة التي لطالما حلّم بها كثيرون يومئذٍ.

نبذة عن الشيطان

سؤال : هلّا تبصروننا بماهية الشيطان، وعمله، وطرق إغوائه، وسبل الوقاية منها، والحكمة من خلقه؟

الجواب :

١ - اشتقاق كلمة شيطان:

الشيطان مخلوق مطروّد من رحمة الله، واشتقاقها من جذرين الأول "شَطَنَ": بُعِدَ عن الله وعن رحمته، والثاني "شَاطَ-يَشِيطُ": احترق وهلك، وأشاطه: أذهبه، وكلاهما صحيح في الشيطان، لأنه مخلوق طُرِدَ من رحمة الله؛ فاستحقَّ الحرق والإبعاد.

٢ - هل يمكن إطلاق كلمة "شيطان" على غيره؟

يمكن شرعاً إطلاق كلمة "شيطان" بمعناها المذكور على كل طاع باغ، وقد سَمَّى الله ﷻ من يُغوي الناس من الجنّ والإنس بزُخْرَفِ الْقَوْلِ شَيْطَانًا: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوا فَدَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (سورة الأنعام: ١١٢/٦).

وقد أطلق سيدنا حمزة عليه السلام لفظَ شيطان على حصان جامع أركبه، فقال: "أركبتموني على شيطان"، وسمى رسولنا صلى الله عليه وآله الكلب الأسود شيطاناً^(٧١)، والبعير الناذ شيطاناً^(٧٢).

يُستنبط من هذا أن كلَّ متمرّد جامع إنسا كان أم جنّا أم حيواناً يمكن أن يطلق عليه -بمعنى ما- لفظ "شيطان"، أمّا الشيطان موضوع السؤال فهو إبليس الذي ابتلي به البشر، وأبى أن يسجد لسيدنا آدم عليه السلام، وكفر بتمرّده على الله تعالى، وصار عدوّاً أبديّاً لكل البشر.

٣- لماذا طرد الشيطان من رحمة الله تعالى؟

إنما طرد الشيطان من رحمة الله لإساءته توجيه قدراته ومشاعره الجبليّة.

لقد خلق الله الإنسان مظهرًا "لأحسن تقويم" بما أودع فيه مادياً ومعنوياً، وبيّن سبحانه هذه الحقيقة بقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (سورة البين: ٤/٩٥)، وماهية الإنسان حقّاً كالتقويم، تجتمع فيها الحقائق الخاصة بجميع المخلوقات، وتحتوي على جوهر كلّ شيء؛ فالإنسان تقويمٌ يدلّ على الكون كلّّه، وهو في روعة فهرست فيه كلّ ما كان خلال سنين وقرون، زدّ على ذلك أن ماهيته غنيّة بمشاعر متنوعة مثل السرّ والخفي والأخفى والقلب، وهو كمال الباطن ومראה الظاهر.

(٧١) سنن أبي داود، الصلاة، ١٠٩ سنن ابن ماجه، إقامة الصلوات، ٣٨ مسند الإمام أحمد، ٢٥٠/٣٥.

(٧٢) سنن أبي داود، الصلاة، ٢٥٥ سنن ابن ماجه، المساجد، ١٢ مسند الإمام أحمد، ٢٧/٢٢.

هكذا خلق الله البشر جميعاً غير أن منهم من تَرَقَّتْ لطائفُه كسيدنا رسول الله ﷺ ففاقَ جبريل، ومنهم من وَجَّهَ ملكاته توجيهاً سلبياً مثل أبي جهل؛ فتردَّى في دَرَكَة تُخزي الشيطان نفسه.

وهكذا طُرِدَ الشيطان وأبعد عن رحمة الله عندما أساء استخدام طاقاته، تأملوا هذا المعنى؛ فهو لم يخلق بعيداً عن رحمة الله، وإنما أبعد عنها بعد ذلك عندما أساء استخدام طاقاته.

٤- من أي المعابر يتسلل الشيطان إلى الإنسان؟

نستهلّ حديثنا عن سبب عداوة الشيطان للإنسان، ثم نستنتج مما جاء في الآية الكريمة على لسان الشيطان نفسه أَضْرَبَ حِيلَهُ لِإِغْوَاءِ الْإِنْسَانِ.

وصارت للشيطان جِبِلَّةٌ أخرى بسخطه على الله وحقده وغيظه وكرهه لبني البشر بعد أن نال هذه الصفعة: ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (سُورَةُ الْحَجَرِ: ٣٤/١٥). أجل، إِنَّهُ طُرِدَ من الرحمة الإلهية لأنه أبى أن يسجد لآدم ﷺ، ولما طرده الله أظهر عداوته له سبحانه.

أجل، إِنَّ امْتِحَانَهُ بِآدَمَ ﷺ ورسوبه فيه أثّر فيه كثيراً، فأقسم قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (سُورَةُ الْحَجَرِ: ٣٩/١٥-٤٠)، أي بسبب تلك الأحداث طفح قلبه حقداً على بني آدم جميعاً في شخص آدم ﷺ، وأي قلب يطفح حقداً لن يكون فيه شيء من التوازن قطعاً، وهكذا الشيطان كان، لقد

عَبَّرَ عَنْ غِيظِهِ وَحَقْدِهِ كَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيْنِي
لَا أَقْعَدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَا تَتَّبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ
أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (سُورَةُ الْأَعْرَافِ: ١٦/٧-١٧).

أَي لَا تَتَّبِعُهُمْ مِنْ أَمَامِهِمْ بِأَنْ أَرْسَمَ لَهُمْ مُسْتَقْبَلًا كُلَّهُ جَحُودٌ وَظِلَامٌ
حَتَّى يَقُولُوا: "لَا بَعَثَ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَلَا جَنَّةَ وَلَا نَارَ..."، وَأَحْطَمَ
أَمَالَهُمْ حَتَّى يَقُولُوا دَائِمًا: "الْيَوْمَ أَسْوَأُ مِنَ الْأَمْسِ"، وَأَوْسَسَ لَهُمْ
بَأَنَّهُ كُتِبَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ أُسْرِيَ لِلْكَفَّارِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا أَزَالَ أُشِيعَ
الظُّلُمَاتِ أَمَامَهُمْ.

وَلَا تَتَّبِعُهُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ بِأَنْ أَحُولَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ تَرَاثِهِمُ الْمُقَدَّسَ الَّذِي
بِهِ يَثْقُونَ، وَأَصُورُهُ لَهُمْ أَنَّهُ مَزَارٌ مُوْهُومٌ، لِأَحْطَمَ أَمَالَهُمْ كُلِّهَا وَأَهْيَجَ
مَشَاعِرَ الْيَأْسِ وَالْقَنُوطِ لَدَيْهِمْ.

وَلَا تَتَّبِعُهُمْ عَنْ أَيْمَانِهِمْ قَائِلًا: "أَنْتُمْ أَهْلُ الْحَقِّ وَالْحَقِيقَةِ، فَلَمْ
تَدْعُوْنَ الْآخَرِينَ يَخْدُمُونَ الدِّينَ؟ هَلَا تَقُومُونَ أَنْتُمْ بِهَا؟"؛ فَأُشْعِلَ
الْحَسَدَ فِيهِمْ، وَأَغْوَقُ خِدْمَاتِهِمْ، وَسَأَحْمِلُهُمْ عَلَى الْحَدِيثِ عَمَّا
فَعَلُوهُ، وَأَغْرِقَهُمْ فِي الرِّيَاءِ وَإِنْ أَدَّوْا عِبَادَاتَهُمْ ظَاهِرًا.

وَلَا تَتَّبِعُهُمْ عَنْ شِمَالِهِمْ بِأَنْ أَلْطِّخَ أَذْهَانَهُمْ بِفَلَسَفَاتٍ مُضْطَرِبَةٍ
مُنْحَرِفَةٍ، وَأَفْكَارٍ يَسَارِيَّةٍ، وَأَنْفُثَ فِي أَرْوَاحِهِمْ أُمُورًا خَاطِئَةً دَائِمًا؛
فَإِذَا أَكْثَرَهُمْ جَا حِدُونَ وَلَكَّ لَا يَشْكُرُونَ.

أَجَلْ، كَمْ وَكَمْ ذَكَرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِعَجْرَةِ الشَّيْطَانِ هَذِهِ بِحَقْدِ
وَبَغْضِ بَيْنِ يَدَيِ الْحَقِّ تَعَالَى.

٥- لماذا لا يهتدي الشيطان؟

وإليكم مثلاً أو مثالين لتبين لِمَ لا يهتدي الشيطان: هب أن امرأةً أسلم قلبه للحقد والكره لأسباب شتى، وفي حالةٍ ولحظةٍ كهذه تراه يعتدي على ما تحت يده، ويطوّح بكل ما تصل إليه، ولا يتورّع عن فعل ما بوسعه حتى يتغلب على الآخرين؛ لأنه لا اتزان عنده، ولا محاسبة للنفس، ولا تفكيرٍ سليماً، أي إن اختلال التوازن هو مِقود ساعات هذا الإنسان ودقائقه ولحظاته وثوانيه، بل إنه أحاط بروحه، حتى غدت له جِبلةٌ أخرى، فراح يفعل ما تقتضيه، وهذا الضرب من التصرفات ضرورة تفرضها جبلته عندئذ.

مثال آخر: لو أن امرأةً غشيت قلبه وكل مشاعره ظلمات الكفر، فلا ريب أن الشبهات والشكوك القسرية ستهزهز الرياح النَّافجة، فالشبهات الشيطانية في الله ﷻ أو رسوله ﷺ تغزو عالمه الفكري، وتزجُّ به في أودية الشك والشبهات.

فإن فرَّ إلى الله عندئذٍ، وسلك طريقاً يباعد بينه وبين تلك الشبهات، برئ منها بعناية الله، أمّا إن استمر ذلك الحال فقد يهَمُّ بالانتحار وتغلبه الهموم، وتلك هي حال الكافرين في الواقع، أي إن هذا الضرب من الأزمات والهموم لا يدعه ولو ساعة بل يطارده دائماً؛ ذلك أن الكفر لا يبرحه.

وبهذين المثالين يتبين لنا لِمَ عصى الشيطان: فمثل الشيطان في الأول مثل من أجهز طوعاً على كل مَلَكَةٍ في جوهره المهيأ للخير

والجمال، وأظهر كل ملكاته الشريرة، حتى طَفَحَ صدره بالكفر وما بقي للإيمان مكان؛ فقد أحاط الشر بحياته كلها ثوانيتها وهنيئاتها إحاطة السوار بالمعصم، فمثله مثل ذلك الغضوب الذي يمتلئ حقداً وكرهاً في كل آنٍ من حياته.

ذلكم هو الشيطان، لقد صار الجحود جبلةً وركناً في سجيته؛ فالأمل في هدايته وبذل الجهد لإقناعه بما يُبَيِّنُ له إن هو إلا كالرَّمَمِ على الماء، لا سيما أنه يعادي كلَّ من آمن بالله حقداً وبغضاً...

ولو أنه سلك طريق الرجل الثاني بأن فرَّ إلى الله تعالى، واجتهد في الخروج من المأزق الذي زلَّ فيه، لنجا منه بعناية الله واهتدى.

٦- ما حكمة خلق الشيطان؟

كُتِبَ في هذا كتب منها رسالة الإمام بديع الزمان، فهي جديرة بالقراءة^(٧٣)، فحسبنا الإشارة إلى هذا بكلمات:

إِنَّ اللَّهَ ﷻ مَنْزَرَةٌ مَبْرَأٌ عَنِ الْعَبْثِ فِي أَفْعَالِهِ، فَهُوَ حَكِيمٌ لَهُ أَلْفُ حِكْمَةٍ وَحِكْمَةٌ فِي الْخَلْقِ، وَمَنِ الْجَهْلُ بِهِ وَعَدَمُ الْمَعْرِفَةِ تَخِيلُ الْعَبْثُ مِنْهُ، فَهَذَا تَخِيلٌ مَمْتَنَعٌ وَلَوْ لَمْ نَدْرِكْ تِلْكَ الْحِكَمِ.

بعد ذكر هذه القاعدة التي هي أصلُ راسخٍ في عقيدتنا نقول: إِنَّ خَلْقَ الشَّيْطَانِ وَتَسْلِيْطَهُ عَلَى النَّاسِ يَحْمِلُهُمْ عَلَى الْحَذَرِ، وَقَدْ حَمَلَهُمْ؛ وَلِهَذَا سَوْفَ يَفْعَلُ الْإِنْسَانُ آلِيَةَ اتِّقَائِهِ الشَّيْطَانَ وَالْوَقَايَةَ

(٧٣) بديع الزمان سعيد النورسي: اللغات، المعة الثالثة عشرة، ص ٩٨-١٢٣؛ المكتوبات، المكتوب الثاني عشر، السؤال الثاني ص ٥٣.

منه، فصار تسلط الشيطان محرِّكاً لعملِ آليّة الوقاية هذه على نحو أفضل، فالعقارب والثعابين السامة في الحقول تحمل العاملين فيها على اليقظة والحذر، وتكشف قدراتهم في التنبه، والصقر لما سُلِّط على العصفور نمت مهارات العصفور؛ وهكذا تسلط الشيطان على الإنسان؛ لقد نمت بهذا مهارات الإنسان وقدراته على الهرب من الشيطان والتخلص منه ونقض حيله كلّها، بل غدا وسيلةً للجوء الناس إلى الله، وإلى قلعة السنة السنية، وأشار القرآن الكريم إلى هذا مراراً، من ذلك قوله: ﴿وَمَا يَزَعْنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (سُورَةُ الْأَعْرَافِ: ٢٠٠/٧) وفي الأمر بالاستعاذة بالله تعالى منه قال: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ (سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ: ٢٣/٩٧-٩٨).

٧- كيف نتقي تسلط الشيطان علينا؟

أ. الاعتصام بالله

إن الاعتصام بالله، والاستعاذة به هي -كما قدّمنا في الآيات الكريمة- أعظم حصن وآلية للوقاية من إغواء الشيطان وتهيجيه، وهذه الآلية شرط في كل الأحوال، وفي الحديث الشريف: "أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ"^(٧٤)، فنسأله سبحانه أن يوفقنا للتحقق بسر هذا الحديث لنسجد له داعين: "اللهم إني أعوذ بك منك، أعوذ برحمتك ومرحمتك من جبروتك وجلالك، وأعوذ بك من الشيطان".

(٧٤) انظر: صحيح مسلم، الصلاة، ٢١٥؛ سنن أبي داود، الصلاة، ١١٤٨؛ سنن النسائي، التطبيق، ٧٨.

ب. ترك التكاسل

يَهْجُمُ الشَّيْطَانُ غَالِبًا عَلَى الْكَسَالَى الْخَامِلِينَ، وَيَرَاوِدُ الْعَاطِلِينَ الْقَابِعِينَ كَالْمَسَاكِينَ خَاصَّةً مَنْ لَا يَقْدُمُونَ لَدِينِهِمْ أَيَّ شَيْءٍ إِيْجَابِيٍّ، لَذَا لَزِمَ بَحْثُ الْخَمُولِ أَوْ السَّلْبِيَّةِ فِي مَسْأَلَةِ التَّحَصُّنِ مِنَ الشَّيْطَانِ، أَيَّ مَا دَامَ الشَّيْطَانُ يَسْتَثْمِرُ خَمُولَنَا غَالِبًا فَلَا رَيْبَ أَنَّهُ يَتَحَيَّنُ فُرْصَ فِرَاقِنَا، فَيُلْقِي فِيْنَا خِيَالَاتٍ وَأَوْهَامًا غَرِيبَةً عَنَّا، لِنَفْكَرَ فِي الْخَبَائِثِ وَنَقْرَأَ عَنْهَا، لَذَا يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَمْلَأَ بِالْفِكْرِ وَالْعَمَلِ كُلَّ فِرَاقٍ يَلْجُ مِنْهُ وَيَعْبَثُ فِيهِ، وَلِنَمْلَأَ شَعُورِنَا وَأَفْكَارِنَا بِاللَّهِ تَعَالَى، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ نَطَالِعَ الْآيَاتِ الْكُونِيَّةَ دَائِمًا، وَنُشْغَلَ بِرَابِطَةِ الْمَوْتِ لِنَمْتَلِئَ خَوْفًا وَخَشْيَةً، وَتَبْلِيغِ دِينِ رَبِّنَا لِمَنْ حَوْلَنَا؛ لِثَلَا يَنْفِذَ الشَّيْطَانُ إِلَى قُلُوبِنَا فَيُوسَّسُ لَنَا وَيُزَعِزِعَ إِيْمَانَنَا.

هَذَا مَعَ الْمَدَاوِمَةِ عَلَى الْأَذْكَارِ وَالْأَوْرَادِ، وَلَوْ أَنَّا جَعَلْنَا حَيَاتِنَا زَاخِرَةً بِخِدْمَةِ دِينِهِ تَعَالَى، لَمَا تَرَكْنَا رَبَّنَا لِلشَّيَاطِينِ بِبِرْكَهٍ مَا سَنَفْعَلُهُ، وَلَبَلَّغْنَا بِنَا بَرَّ الْأَمَانِ فِي ظِلِّ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الْمُبَارَكَةِ.

ج. الوفاء بالعهد

إِنْ الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ لَا يَقِلُّ أَهْمِيَّةُ عَمَّا ذَكَرْنَا مِنْ أُمُورٍ نَنْتَقِي بِهَا إِغْوَاءَ الشَّيْطَانِ. أَجَلْ، فَمَنْ وَفَّى بِعَهْدِهِ، وَنَصَرَ دِينَ اللَّهِ فَلَنْ يَسْلَمَهُ سَبْحَانَهُ لِلشَّيَاطِينِ وَالضَّلَالِ، أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾

(سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ٤٠/٢)؟

أجل، طالما استمسك العبد بهذه الرؤية وهذا الاعتقاد، وطَبَقَ فعلاً، فسيكفيه الله بلا ريب تسلُّط الشيطان بأن يذكره بآية أو يريه برهاناً، ويرفع الغشاوة عن بصره، ويحفظه حقاً، وما أكثر الأمثلة على هذا في حياة الصحابة والأصفياء والأولياء، وكلها تكشف أن برهان الله قد تجلَّى لهم حينما تاهت عقولهم وغُشي على أبصارهم، فهداهم سبحانه فوراً إلى الاستقامة، ومن يدري كم وكم أنقذنا من التردي والتعثر عدم إصرارنا على استخدامنا إرادتنا استخداماً سيئاً، وحظينا بنعم ربنا تلك.

إن من وفَى وأخلص له تعالى يحظى بوفائه وعنايته بمقتضى الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (سُورَةُ مُحَمَّدٍ: ٧/٤٧)، بل من قصدوه بإرادتهم المحدودة حظوا بنعمه التي لا تُحَدِّد، وهنا ينبغي علينا -نحن رجال الدعوة المباركة- أن نمضي في هذا السبيل الذي ينتهي بنا إلى جمال الله وجنته، وألاً نتخلى ولو هنيهة عن الوفاء بالعهد، وألاً ننسى ولو لحظة أننا تحت مراقبة ذلك الرقيب المهيمن، إيماناً منا بأنه سبحانه معنا مطلع علينا أنى وحيثما كنا، فلنراقب أنفسنا هكذا، ولنسيطر على جوانبتنا دائماً.

د. تجنب الوحدة

تجنَّب الوحدة أمضى سلاح للتحصُّن من إضلال الشيطان وإغوائه، ولا بُدَّ من إشهاره دائماً على آية حال، وأقلَّ ما يتحقق به ثلاثة أصدقاء فأكثر كما جاء عن رسول الله ﷺ^(٧٥)؛ أي إننا بصحبة

(٧٥) سنن الترمذي، الجهاد، ٤؛ سنن أبي داود، الجهاد، ٨٦.

أهل سوقنا وبيتنا وحياتنا كلّها ممن يشعر ويحس مثلنا ويؤمن مثلنا
لنّتعالي عن أن نكون لعبة بيد الشَّيطان.

أجل، إنّ الخواطر السيئة كالبذرة المدفونة فينا، تنمو يوماً إثر
يوم، وتتكشف برعمًا، فما أجمل أن تُقطع هذه الخاطرة السيئة وهي
برعم وتُلقى بعيداً! وإلا نمت وكبرت وتفاقت، فهدمت بنيانها الذي
سمقت فيه، فلنستأصل منذ البداية صغار البذور التي نثرها الشيطان
في أرواحنا، وإلا فربما يطول الزمن، فتغدو أمراً يستحيل التغلب
عليه، فتخلّ بتوازننا ومنطقنا بل بمخيلتنا، وتكاد تتعدّر النجاة عندئذ.

لذا ينبغي تجنب الوحدة فعلاً حقاً لئلا تتجذر مثل تلك الخواطر
الخبیثة في بيتنا، ثم تتغول فتأسرنا. أجل، إنّ عزيمتنا ورُقينا الروحي
وحياتنا القلبية ربما لا تكفي لتحسيننا؛ إذ إن صلّتنا بالله ليست
كما ينبغي، وكذا اختلال صلّتنا بالآخرة نتيجة الفوضى الاجتماعية
القائمة.

نعم، لنا أصدقاء تنطق وجوههم بالحقيقة، وتتجلى إرادة الله في
إرادتهم، إنّ نأتهم ونشاركهم المناخ والبيئة نفسها فقد نكتسب منهم
قوة من يجالس ولياً؛ فكلماتهم وأحاديثهم تبدو ناراً تُذيب صُلْدَ
المشاعر والخواطر الخبيثة فينا، وأحياناً ما نكون نحن أيضاً هكذا،
فيأتوننا، فيستفيدون هم منا.

أجل، إنّ الله ﷻ خلق الإنسان اجتماعياً بفطرته، وهو ذو حاجات
مادية ومعنوية تقتضي أن يعيش في مجتمع على هذه الشاكلة، فعلينا

ألا نفارق جماعة على هذا النحو، وألا نعتزل الأصدقاء الخيرين الطيبين الأبرار.

هـ. استماع الوعظ والنصائح

الإنسان كائن يحتاج إلى أن يخفق قلبه يومياً، وتدمع عيناه، ويجدد جوانيته بضع مرات، وقد عظم القرآن شأن من يتصلون بربهم، ويخرون للأذقان سجداً من شدة خشيتهم إياه، وقد تبلغ بنا المواعظ والنصائح أحياناً هذا الأفق، ومن المؤسف أننا عامة جيل منكوب محروم من الاستماع إلى هذه النوع من الوعاظ والمرشدين الدالين على الخير، ليت لدينا مئات وآلاف من الوعاظ الذين يحدون قلوبنا، فيبلغون بنا حالة العشق والشوق.

أجل، ليت عندنا آلاف من الوعاظ الذين تغص حناجرهم بكلماتهم من البكاء، فلا يفهم ما يقولون على المنابر كما كان حال فخر الدين الرازي! ليت هذا يحدث، وإن لم نفهم شيئاً على الإطلاق، فحسبنا الاتعاض بحالهم، ليت عندنا مئات وآلاف من المرشدين يروون لنا حياة الصحابة والتابعين وتابعيهم ويضيفون عليها روحاً من روحهم، فنستمع إليهم، ونغضي حياءً من إنسانيتنا، ليتنا نشعر بالحاجة إلى التفتيش في حياتنا ونمطها، وننظم أنفسنا.

وعندئذ قد ترق قلوبنا، وتزول الأصداء التي تشوشها، وتحيطنا التجليات الإلهية التي تنعكس على أرواحنا؛ فنبعد بهذا عن الوسواس والدسائس الشيطانية كافة.

وأعيزك أن تقول: "أعلم هذا فلن أقرأه مرةً أخرى، لقد سمعت هذا من قبل، ولا حاجة لأن أسمعه مرةً أخرى!"، إن لحياتنا المعنوية وقلبنا وروحنا وضميرنا ومشاعرنا كلَّها حاجاتها كما نحتاج إلى الطعام والشراب، وهي حاجات متكررة، فوجب أن نقف بباب مرشد ونلوذ به، ونلج مناخ ولي الله هذا الذي يذيب كل شرٍّ، ويحول دون نفوذ الشيطان إلى نفوسنا، فلنجدد أنفسنا دائماً.

٨- ما الأدعية الواقية من شر الشيطان؟

لو أننا أطلقنا على الأمور التي تحدثنا عنها "أدعية فعلية" في هذا الشأن، فثمة أدعية قولية تردفها، وكلاهما كالوجهين لشيء واحد، إذ إن فعل أحدهما وإهمال الآخر أو تركه ربما يمنع تحقق النتيجة المستهدفة.

إذا ينبغي أن نحافظ على الأدعية القولية حيثما وأينما كنّا، ولا نهملها.

وإذا ذكر الدعاء القولي فمن البدهي أن تتبادر إلى الذهن أدعية رسول الله ﷺ، فكم من مناسبة لا تُحصى في مقالة سردًا وشرحًا قد استعاذ فيها سيدنا رسول الله ﷺ من الشيطان: عند الطعام ودخول الخلاء والجماع... إلخ، وعليك بكتب ومجلات جمعت أدعية في هذا الموضوع وغيره، وإليك نموذجًا من دعاء علّمناه رسول الله ﷺ عند الخوف من الشيطان.

علمنا رسول الله ﷺ هذا الدعاء للتحصن من الشيطان: "أَعُوذُ
بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يَجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ
وَبَرًّا وَذَرًّا، وَمِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمِنْ شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَمِنْ
شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمِنْ شَرِّ فِتْنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ،
وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنُ" (٧٦).

اللهم تولّ أجيال القرن العشرين التّعسّة البائسة، الشاردة
عن طريق مسجدها ومنبرها ومحرابها، التي تتيه في أودية الكفر
والضلال، وكلّما تاهت غرقت، والتي تحتاج إلى الهداية والإرشاد
بقدر تيهها وغرقها، اللهم فاحفظها من شرّ شياطين الإنس والجنّ
وأعوانهم، اللهم آمين...

تغيير المنكر

سؤال: كيف نفهم الحديث الشريف: "مَنْ رَأَى مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ"؟^(٧٧).

الجواب: هذا الحديث أخرجه مسلم وأصحاب السنن، ومعناه أن على من رأى أمرًا ينكره الدين أن يغيّره بيده؛ فإن لم يستطع تغييره بيده، بأن لم يكن قادرًا على الدخول في الأمر فعلًا، فليغيّره بلسانه أي بالقول اللين والنقاش الحسن والمجادلة الحسنة والوعظ والنصيحة، فإن لم تُتَح له الإمكانات والمناخ لتغييره بلسانه أيضًا، فعليه أن يبغضه بقلبه، وهذا أضعف مراتب الإيمان.

إننا مُنِينَا بجرثومة تقرض حياتنا الاجتماعية، جرثومة تقوّض بنيان المجتمع رويدًا رويدًا كالزنا والمخدرات والربا والاحتكار، وإن أعداء الأُمَّة وحبائل الشرِّ لَتُعْنِي بإحياء هذه الأمراض، وتعلمون وتشهدون يقينًا كيف تُزلزل هذه العللُ المجتمعَ وتقصمُ ظهره، ومن المستحيل تغيير هذا بيد الفرد، فتعيّن على أصحاب المسؤوليات أن يغيّروه باللسان، أي بالموعظة الحسنة، وذلك بأن يبيّنوا أن الربا

(٧٧) صحيح مسلم، الإيمان، ١٧٨؛ سنن الترمذي، الفتن، ١١١؛ سنن أبي داود، الصلاة، ٢٣٩.

جرثومة تقرض الحياة الاجتماعية، وأن الزنا سرطان وغرغرينا، فيثير اشمئزاز الناس منه ويغضهم فيه ويخوفهم منه ويصرفهم عنه، وذلك بالكلمة الطيبة والقول اللين ومنهج التبليغ المستفاد من مقاصد القرآن الكريم.

أجل، كانت للحكام كلمتهم في هذه الأمور يوم ساد الإسلام، وقام الجيش وقوات الأمن بمهمتهم أيضًا، وحالوا دون انتشار ذلك المنكر في حياتنا الاجتماعية، وهذا من ضروب التغيير باليد، وهذا الضرب من التدخل لتغيير المنكرات لا نراه في يومنا هذا، كما لا يُرَغَّب في الأمور الحسنة والفضائل كما ينبغي، ولو أنك اليوم منعت شارب الخمر في السوق لوجدته يلطمك، فتغيير المنكر باليد له زمانه ومكانه.

أما تغييره باللسان؛ فإذا كانت الدولة لا تقوم بمسؤوليتها ووظيفتها هذه، أي لا تقوم بمهمة "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" فلا تأمر بما أمر الله، ولا تحظر ما حرم الله، بل تفتح أبوابها لجميع الأمراض التي تنقرض بها الحياة الاجتماعية، فمثلاً يرتكب الزنا تحت قانون ونظام معين، وكذا الخمر والربا... تُرتكب هذه الموبقات ولا تستطيع تغييرها بيدك، فواجبك أن تغيّرَها بلسانك.

والحمد لله كثيرًا أن لنا اليوم أن نتحدث ونبيّن هذه الأمور، بينما هناك فترات وبلاد يتعذر الحديث فيها عن هذا في العالم الإسلامي وخارجه أيضًا؛ ففي هذه الحالة يجب علينا قطع صلتنا بمن يرتكبون تلك الموبقات إلا للإرشاد والتبليغ، والشعورُ بلوعة الأذى عليهم

لِزَامًا، وهذا أقل الواجب، أمّا مجالسة مرتكب المنكرات واستحسان سيئاته -عافانا الله- فهو انحطاطٌ وسقوط، ومثله استحسان مَنْ يرتكب موبقة الزنا ويضعف أمام شهوته؛ وبهذا قد يُعمّ العذاب الإلهي الخلقَ عامّةً.

وهنا أستمحكم عذرًا في أمر آخر: قد يرتكب مجتمعٌ مفاسد شتى؛ ولو أنّ فيه وعيًا جماعيًا فعلاً مرناً سريع الحركة يدفع تلك المفاسد ويقضي عليها لارتدّت تلك المصائب بهذا الفكر وهذه الحركية اللذين هما بمثابة مانع الصواعق فينجو المجتمع، هذا وقد تحلّ بنا المصائب والبلايا ولا تردّها الموانع إن لم يكن ثمة وعيٍ جماعيٍّ نشِطٌ على ذاك النحو يقاومُ مساوئ المجتمع، أو مرشدون مناضلون يتصدّون لهذه المفاسد كأنّهم رجال إطفاء يكافحون الحرائق.

لذا يتعذّر على المؤمن أن يُجالس مرتكبي المنكرات جهراً، أو يتواصل ويلتقي معهم من أجل علاقاتٍ شخصيّة، والواقع أن المؤمن يمكنه أن يتواصل مع الجميع بدرجةٍ ما، بل مع مرتكب الموبقات أيضاً بنيةٍ تعريفه بمحاسن الإسلام، وإنقاذه من السّفه المنغمس فيه، على أن يكون هذا كله لوجه الله ليس إلّا، وبهذه النية يغدو تواصلنا مع هذا المسيء عبادةً.

نعم، إنّ بغضَ القلب لمرتكبي المعاصي هو أضعف الإيمان. أجل، سنُبغض من لا يحبون الله ويحقرون نظام الكون الإلهي، ولهذا البغض شرط: أن يدفع صاحبه إلى إزالة تلك المساوئ

عن أصحابها؛ يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِمُدَارَةِ النَّاسِ كَمَا أَمَرَنِي بِإِدَاءِ الْفَرَائِضِ" (٧٨)، أي كما أمرني الله تعالى بالفرائض أمرني بإدارة البشر بحكمة وإحكام.

أجل، يجب أن نحدِّث ذلك الإنسان بالكلمة الطيبة لا بغلظةٍ وفضاظةٍ، لا بدَّ أن نُدني منه حقنةً مليئةً بالنور بلطفٍ وإحسانٍ حتى يمكن علاجه بها، وكى لا تُقابل مقترحاتنا وأفكارنا بردَّ فعلٍ عكسيٍّ؛ من أجل ذلك أمر الحقُّ تعالى سيدنا موسى وهارون ﷺ بقوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (سُورَةُ طه: ٤٤/٢٠)، أي حاورا فرعون، وحدِّثاه عن الحقِّ والحقيقة دون أن تُقْطبا وجهكما... حدِّثاه حتى يكون للتبليغ معنى، وكى لا تذهب الجهودُ المبذولة في هذا السبيل سدى...

مجمل القول: تحدثْ وقابلْ مَنْ تحدثه وتلتقي به من أجل الله فحسب؛ وتحمل كل شيء في سبيل الدلالة على الله وتبليغ أوامره، وواجه كلَّ شيء، وأبغضْ من تبغضه من أجله تعالى فحسب.

الإرادة والامتحان

سؤال: كيف ينبغي أن نفهم مسألة "الامتحان بالإرادة"؟

الجواب: إنَّ عالم الخلق هو ميدان البحث في مسائل كيان الإنسان الماديّ والجسماني مثل ملامح الوجه والتركيب البنيوي والأحياء، وعالم الأمر هو ميدان البحث في الأمور الروحية والمعنوية مثل الأصول الأربعة: الإرادة واللطفية الربانية والوعي والشعور، وكذا السرّ والخفيّ والأخفى، فكلُّ منها بعدُ مهمٌّ من أبعاد اللطفية الربانية. معالِمُ عالمِ الأمرِ هذه لها صلة مباشرة بالروح؛ وبشائر دنيوية وأخروية لأرباب "السير والسلوك"، وطبعيٌّ أن تكون لمن يُكرّم بأمور كهذه غايةً خالدة مُستهدفة، يكدُّ في حياته كلّها ليلبغها.

وينبغي ألا يُنسى أبداً أنَّ قدرة الإنسان على بلوغ هذه الغاية رهنٌ بكونه "إنساناً كاملاً"، وأيّاً كانت هذه الغاية، أهي إشباع الشهوات الجسدية، أم التمتع بالجنة، أم رؤية جمال الله تعالى، لَن يتحقّق منها شيء إلا بتفعيل المشاعر والاستعدادات والطاقات الموهوبة له، ويشترطُ لتحقيق هذا كثرة العمل والتدريبات؛ وبذلك يمكن أن يشعر الإنسان ويتمتع ويتلقى الواردات أي أن يكون "الإنسان الكامل" الذي تحدّث عنه "عبدُ الكريم الجيلي" في كتابه المسمّى بهذا الاسم.

أجل، إن الإيمان بالله هو أسمى غايةٍ للخلق وأعظم ثمار الفطرة الإنسانية، وتنبع عنه معرفة الله ثم محبته جل شأنه، فالذوق الروحاني، ثم ذرؤه هذا الذوق الروحاني وهو العشق، وأثره في روح العبد "الشوق" و"الوجد" وهو: الغياب عن شهود الذات، و"التواجد" أحياناً لبلوغ الوجد، و"المواجد" وهي: أضعاف الوجد، و"الجدب": وله طريق ومدخل آخر مغاير لهذه الأحوال، و"الانجذاب" حيث لا تبقى إرادة، وآخر الانجذاب ﴿وَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (سورة الحَجَر: ١٥/٩٩)... أجل، قد يصل الإنسان بهذه الأمور كلها إلى مستوى الإنسان الكامل غاية الخلق وثمره الفطرة.

أما الإرادة فهي كما بينا من الأصول الأربعة للضمير في عالم الأمر، فهي كما عبّر عنها الإمام بديع الزمان بأسلوبه الأنفس السهل الممتنع: "الميلان أو التصرف في الميلان"^(٧٩). أجل، إن هذه الحقيقة التي عبر عنها الأستاذ النورسي تعبيراً وجيزاً جداً أفرد أعلام أئمة علم الكلام أمثال السيد الشريف الجرجاني والتفتازاني صفحات لبيانها وشرحها.

أجل، إن الإرادة ميلانٌ محض أو تصرفٌ في الميلان، أي هي بذل الإنسان المخير بين شيئين جهداً وسعيّاً لاختيار أحدهما، وهي شرط عادي فقط، ولا تُلتمس أية علاقة بينه وبين النتيجة في إطار قانون السبب والنتيجة، وهذا كالعلاقة بين الإنارة والضغط على زر شبكة كهربائية تنير الدنيا، وكأنهيار الأنظمة العملاقة أو قيامها بنفخة منكم.

(٧٩) بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، الكلمة السادسة والعشرون، المبحث الثاني، ص ٥٣٥.

وتبيّن من الأمثلة أنّه لا علاقة بين السبب والنتيجة قطعاً؛ إذ يستحيل أن يؤدي ذلك السبب إلى هذه النتيجة في الواقع وفي ظل الظروف الطبيعية، وتسمى هذه الإرادة "إرادةً نسبيّةً اعتباريّةً".

وبعد هذا التمهيد الوجيز إليك مسألة الامتحان بالإرادة:

١- إننا نمتحن بإرادتنا، فكيف لأمرٍ صغيرٍ "الميلان أو التصرف في الميلان" أن يأتي بنتائج عظيمة كهذه؟ لا تناسب معقولاً ومنطقياً بين السبب والمسبّب، وهذا يُظهر لنا عظمة الله المطلقة، ويبين بعداً مهماً جداً من أبعاد هذه العظمة، وربما أخطأت بإسناد لفظ "البعد" إلى الله تعالى، لأنه لفظٌ يعبرُ عن الكمّ والكيفية، غفرانك اللهم وعفوك إن أخطأت... أجل، فكما ذكر الإمام بديع الزمان: إنّ خروج شجرة صنوبر عظيمة من بذرة صغيرة جداً، وخروج الفرخ من البيضة -أو بعبارة أدقّ "من عقدة حياتية صغيرة جداً داخل البيضة"- كلُّ هذه تجليات قدرة الله تعالى وقوته^(٨٠).

وما إرادتنا إلا شيءٌ كهذا، أي إنّ دورَ البذرة أو العقدة الحياتية في الشجرة والفرخ أيّاً كان هو أيضاً دور إرادتنا في الأمور التي نقوم بها وفي نتائجها مهما كانت عظيمة، والحقيقة إنّ كلّاً منها يدل على حقيقة "الله أكبر"، لذا نردّد "الله أكبر" أو نسمعها ثلاثين مرةً على المآذن خمس مرات في اليوم، بل إنّ المؤمنين الذين يرقّون في أفق "هل من مزيد؟" لا يكتفون بهذا؛ فيكبّرون في أعقاب كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرة قائلين "الله أكبر"، ليعلموا هذه الحقيقة مرّةً أخرى.

٢- أَيْاً كانت ماهية الإرادة، فلا بد من اعتبارها والاعتداد بها طالما علّق الله تعالى بعض الأشياء عليها؛ لأنّه تعالى قدّر مستقبلنا وفقاً لإرادتنا، أي كأن الإرادة خطة ومشروع بالنسبة لمستقبلنا؛ ولما قدّرنا نحن أهل السنة الإرادة حقّ قدرها حققنا التوازن وتجنبنا إفراط المعتزلة وتفريط الجبرية. أجل، إن بعضهم يزعم أنّه لا قيمة للإرادة مطلقاً، ومنهم من يرى أن الإرادة هي كلّ شيء، حتى إن بعضهم يزعم أن لها وجوداً خارجيّاً"، أما أهل السنة فإنهم يقولون: الإرادة أمر اعتباري، وما دام الله ﷻ علّق أشياء كثيرة على الإرادة، فلا نلتفت ولا ننخدع بصغر الإرادة ولا بعظم الخلق والمخلوق، وبهذه الرؤية ننجح في الامتحان ونبلغ درجة الاستقامة في الفكر.

إننا أهل السنة بهذا نقدر الإرادة قدرها وننظر إلى المستقبل والذنوب من وجهة النظر هذه.

٣- استخدام الإرادة في الوجهة التي شرعها الله أمرٌ مهم جدّاً؛ فإن كنتم تسعون باستماتة في سبيل الدعوة التي تدافعون عنها لكنكم تبخسون إرادتكم حقّها، ولم تستخدموها بتوازن ولم تغدّوها بعناصر تقويّها، فمن الممكن أن تقعوا في أخطاء لا عاصم منها؛ أي ستخفقون في امتحان الإرادة إن اجتهدتم دون أن تعتمدوا طرز عصر السعادة وتراعوا الظروف الجارية وعنصر الإنسان وإرادته، وقلتم: "سنتظاهر من أجل خدمة الدين، ونناضل بالسلاح، ونجرب الطرق السياسية، ونقاوم العالم بقوة وقسوة، ونمضي نحو الهدف من هذا الطريق"؛ إنه ما ينبغي أن تصطدم الإرادة بالفراغات المنطقية

والحسية، بل ينبغي أن تُمدَّ دائماً بعناصر داعمة متنوعة، وأن تتآزرَ الإرادةُ والشعور مطلقاً في هذا الاتجاه، لتصل إلى عمق أبلغ، وهنا قد تُعزَّر الإرادة بِجَرَائِكِ فاعِلٍ من لدن اللطيفة الربانية التي هي مهبط الوحي والإلهام.

عندئذ ستصل الإرادة تحت سُرُجِ الوحي أو الإلهام النيرة إلى أبعاد متنوعة، سواء في مجال الخدمة أو العبودية، فيضاعف الله أجر العبادة والخدمة الواحدة منها آلاًفاً، ويتحقق النجاح في الامتحان بخدمات إرادية من هذا القبيل، أعني تلك التي تتم دون تردٍّ في الفراغات المنطقية والحسية.

٤- ومن أبعاد المسألة من حيث العلاقة بين الإرادة والامتحان: أن نقوم بما علينا، ونكفّ قطعاً عما هو من شأن الربوبية. أجل، فهذه أيضاً مسألة إرادة؛ لأنّ طلبنا لأمرٍ لا يقوم بها إلا الله أمرٌ يفوق إرادتنا، ويفضي إلى التردّي في اليأس ونخفق في الامتحان؛ ولينظرُ إلى هذا الأمر أيضاً في ضوء ما ذكر الإمام بديع الزمان أن "جلال الدين خوارزم شاه" كان في طريقه إلى الحرب فقال له الوزراء: "لِيُظْهِرَنَّكَ اللهُ عَلَى عَدُوِّكَ، وَلِيَنْصُرَنَّكَ عَلَيْهِمْ"، فأجابهم: "عَلَيَّ أَنْ أَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ طَاعَةً لأَمْرِهِ سُبْحَانَهُ، وَلَا حَقَّ لِي فِيمَا هُوَ مِنْ شُؤْنِهِ وَلَمْ أَكُلِّفْ بِهِ؛ فَالنَّصْرُ وَالْهَزِيمَةُ بِتَقْدِيرِهِ سُبْحَانَهُ" ^(٨١).

أجل، لطالما حملت ظروفُ الماضي القريب في هذا البلد أمثالَ محمد عاكف وسليمان نظيف على ضروبٍ من اليأس؛ ولعلَّ عدم

استيعاب مسألتنا هذه من وجوها كلها أودى بقامات سامقة في اليأس يومئذ، "يوم أن كثرت هزائم أمتنا" كما قال نجيب فاضل.

إذاً علينا القيام بمهمة العبودية؛ فتصرّف يتضمن المساومة في معاملتنا مع الله مثل: "هل تفعل لي كذا إن فعلتُ كذا" إسفافاً، لا يمكن تصويره في باب العبودية أبداً، فلنقم بواجباتنا لعلنا نفوز في امتحان الإرادة ما لم نقحم أنفسنا في شأن الربوبية.

وقد يرد سؤال: "أليست الإرادة ذاتها طريقاً للنجاح في امتحان الإرادة؟" أجل، يكون النجاح في امتحان الإرادة بالإرادة أيضاً؛ فوجب شحذ الإرادة دائماً، والدعاء والاستغفار عنصران مهمان جداً، يقول الأستاذ النورسي: "إن الدعاء والتوكل يمدان ميلان الخير بقوة عظيمة، كما أن الاستغفار والتوبة يكسران ميلان الشر، ويحدان من تجاوزه" (٨٢).

إن الإنسان أحيط وطُوق تطويقاً بالشهوات التي حُفَّت بها جهنم -كما جاء عن الصادق المصدوق عليه السلام- أي بشهوة الطعام والشراب والنوم والدعة والخواطر والمشاعر المثيرة لرغباته الجسمية، حتى إنّ أيّ خطوة في هذا الاتجاه ربما تكون هي نفسها ضياعاً وانغماساً في خضمّ الشهوات، فمن علقَ بأيّ منها وقع فريسةً لنفسه الأمارة وهلك، وسيأتيه يوم يكون فيه ضعيفاً أسيراً لها كليّةً، والاستغفار كتعويدة تجتث جذور كل أنواع الشر وكل ميلانٍ إليه.

نعم، إِنَّ الاستغفارَ الذي يجتثُ جذورَ الميلانِ إلى الشرِّ هو: الندمُ على الذنوب السابقة، والثبات على الاستقامة الراهنة، والعزم على عدم العودة إلى الذنوب في المستقبل، والإصرارُ على هذا، والأهمُّ هو تعزيزُ هذا، أي شعور الوجدان التأمُّ بالتوجُّه إلى الله تعالى.

أما تعزيز الميل إلى الخير بالدعاء، فالقرآن الكريم يحثُّنا عليه في مواضع عدَّة، منها: قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (سُورَةُ غَافِرٍ: ٦٠/٤٠)، وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ١٨٦/٢)، أي حذارِ أن يئأس عبادي؛ فأنا أقربُ إليهم من حبل الوريد، فإن عجزوا عن الدعاء العملي فعليهم بالقولي، فإن عجزوا فليتوجهوا إليَّ بقلوبهم، أي إن كان ما يقولونه بألسنتهم لا يطمئن نفوسهم فليسلموا أنفسهم إلى سَعَةِ ضمائرهم، ويقولوا:

"إلهي! سألتك ببعض الأدعية ما سألت وما أكثر ما سألكُ الأنبياء والأصفياء والأولياء والمقربون والأبرار مما ينبغي أن أسألكه ولم أفعل لعجزني عن معرفتها وإدراكها، وهذا عبدك يتأملُ هذا كله، ويتوجَّهُ إليك ثانيةً بذراته كلها، ويقف على أعتاب باب رحمتك وكلَّه أنينٌ".

أجل، علينا أن نعلوَّ بهممنَّا، ونوجَّه وجوهنا لربنا ببصيرة عميقة أي إنه توجَّه لغني مطلق لا تنقص خزائنه مثقال ذرة ولو وَهَبْنَا جَنَانًا يَوْمِيًّا لا إلى مخلوقٍ عاجزٍ ضعيف.

هذا والحقيقة المذكورة في الآية الكريمة: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ (سُورَةُ الْفُرْقَانِ: ٧٧/٢٥) تكشف أن توجُّه الإنسان إلى الله بالدعاء جانب مهمٌّ جدًّا؛ لأن الدعاء يكاد يكون أخلص العبادات؛ فبعض العبادات عُرْضة للرياء والسمعة، بل قد تُؤدِّي كَرْهًا بمقتضى ما يظهر من أسباب، أمَّا الدعاء فهو سلاح نتوشَّحه عندما تتهاوى الأسباب جذريًّا، فلا ينبغي الاعتماد على الأسباب في الدعاء، ولا يدخله الرياء والسمعة غالبًا، إذ يتوجه الداعي بقلبه أجمع حيث لا أحد معه مطلقًا، يمدُّ يديه وهو يتلوى ويتضرَّع ويبتهل إلى ربه تعالى ساجدًا قد أغرقت عيونه مُصَلَّاه.

ودعاء كهذا يعزز الميل إلى الخير، أي يُكسب إرادة الإنسان القوة والقدرة على فعل الخيرات، فهذا رسول الله ﷺ يستغفر في اليوم سبعين^(٨٣) أو مائة^(٨٤) مرة، ويلازم الدعاء في شؤونه كلّها عند كل حالة من أحواله تقريبًا، بدءًا بسماعه صياح الديك إلى ارتدائه ثوبًا جديدًا، وهكذا يمكن أن نصبح يومًا فيومًا أهلًا للدعاء والاستغفار بملازمتنا لهما، ولو بأن نُكره أنفسنا قليلًا بادئ الأمر، فهذه الأمور كلّها من الامتحان بالإرادة في مقام العبودية.

ولـ"يونس أمره" مقطوعة في الإرادة يحسن أن نختم بها:

وَأُقْعِدْتُ لَمَّا غَلَبْتَنِي نَفْسٌ قَدْ عَتَتْ

جَشِيعَةً لَا تَشْبَعُ مِنْ دُنْيَا بِهَا رَتَعَتْ

(٨٣) صحيح البخاري، الدعوات، ٣؛ سنن الترمذي، تفسير القرآن، ٤٧؛ سنن أبي داود، الوتر، ٢٦.

(٨٤) صحيح مسلم، الذكر، ٤١؛ سنن الترمذي، تفسير القرآن، ٤٧؛ سنن ابن ماجه، الأدب، ٥٧.

عميتُ إذ ما قميص الغفلة ارتدت
فغدتُ عاجزةً جاهلةً بأن دنياها انقضت

ربّ هل أسلمَ من لقميص الغفلة ارتدى
وغدا يتبع أمر النفس والهوى الرّدى؟

يكسب ما يكسب ثم يفنى
ويضنُّ بالمثقال في أمر الهدى

مولاي ارفع غفلةً قد غشيت
عيني ولا تسود الوجه إذا وردت

فهلّم واستمسك بنصيح يونس المصيب
إذ ليس لذي الدنيا يوم القيامة نصيب

العبادات المالية والبدنية

سؤال: العبادات مالية وبدنية، فهل توضّحون المسألة خاصّة العبادات المالية للمؤمنين الموسرين؟

الجواب: العبادات أصلاً قسمان: مالية وبدنية، ويُخطئ من يظنّ أن هذا التقسيم يعني أنهما متباينان لا صلة قريبة أو بعيدة بينهما، فكلُّ منهما متعلّق بقسيمه ومعزّز له.

فالصلاة مثلاً عبادة بدنية لكنها لا تنفصل عن المادة جذريّاً، فالزمان والمكان فيها عناصر ماديّة، وهما جليّان عند النظر إلى شروط الصلاة قبل الدخول فيها وبعده.

والزكاة عبادة ماليّة، وهي بدنية أيضاً من حيث إنّ الفرد يكّد في السوق ويسعى حتى يغدو أهلاً لوجوب الزّكاة عليه.

والحجّ عبادة لها وجه مالي هو النفقة وآخر بدنيّ هو الرحلة الطويلة والمناسك من طواف وسعي ووقوف ورجم للشيطان وغيرها، وهكذا الصوم.

إذا العلاقة قوية وعظيمة جدّاً في هذه الأركان الأربعة، فكأنّ ما نتقرب به إلى الله في باب العبودية لا ينفك عن المادة.

وبعد فموضوع السؤال أنَّ للمادة دورًا رائدًا في الدفاع عن القرآن والإيمان والسعي في نشرهما اليوم، ومن هذا الجهادُ بالمالِ في سبيل الله، أي بذله في سبيل الحق بالزكاة ونحوها كالهبة والوقف والصدقة. وتنبغي الإشارة إلى دقِيقَةٍ لطيفةٍ قد تُفهمُ خطأً: إن من وهبهم الله المال لا تُعني زكاتهم ولا أضعافُها من الصدقات عن السعي بأبدانهم في سبيل الخدمة، وقد ذكرت آرائي هذه مرارًا في مناسبات كثيرة، وأوجزُها هنا لمناسبتها:

كان أبو بكر رضي الله عنه من أثرياء مكة يوم أن عرف مفخرة الإنسانية ﷺ، أما يوم توفي فميراثه معلوم. أجل، إنه لما عرف رسول الله ﷺ أنفق كلَّ ما يملك، وأفناه في سبيل الإسلام، وأقدم بنفسه في كل نضال ومعركة لا سيما الهجرة إلى المدينة فشهد بدراً وأحداً والخندق وخيبر وتبوك وغيرها.

فما كان إنفاق المال كله في سبيل الله لِيُعَوِّقَهُ عن الكفاح بنفسه، ولو فرضنا محالاً أنه ﷺ لم يشهد أحد هذه المشاهد، فليس ببعيد أن يقول له رسول الله ﷺ ما قاله لكعب بن مالك رضي الله عنه لما تخلف عن غزوة تبوك، وأن يهجره ولا يكلمه وينهى عن كلامه حتى يأتي بيان سماوي بتوبته كما فعل بكعب وصاحبيه.

أجل، إن المادة أحياناً كانت في الصدارة في خدمة الإسلام والقرآن، وهذا ليس مطلقاً، بل يختلف باختلاف الزمان والمكان وأحوال الأفراد.

وهذا الضبط للمسألة يتيح بحثها من وجهين:

١. إنفاق الناس ما قلَّ أو أكثر مما يملكون، وصرفه في سبيل الله تعالى.

٢. التضحية الممكنة في هذا وَفْقَ المقادير الشرعية.

أجل، اليوم لدى المسلمين فهمٌ معوجٌّ جدًّا وخاطيءٌ بقدر اعوجاجه، يقول بعضهم: "لستُ من أولي السَّعة، فلا ثروة لديّ، لذا لستُ معنيًا بالعبادات المالية من زكاة وهبة ووقف وصدقة وغيرها". كلا، إن هذه رؤية خاطئة قطعًا، فكلُّ مكلف بعبوديته تعالى بقدر ما وهبه من إمكانيات، فمن عنده عشر ليرات ومن عنده مائة ألف ليرة كلاهما يؤدّي حقوق الله تعالى مما أُوتِيَ، ويسعى للإنفاق ونيل رضا ربه بأداء حق العباد منه، وأخصَّ يومنا هذا، فعلى الجميع أن يُسهموا، أي كلٌّ من يؤمن بهذه الدعوة العظيمة، كلُّ بقدر ما أُوتِيَ من أجل إعلاء كلمة الله وعلوّها، لذا لا يصدر عن المؤمن بل يستحيل أن يصدر عنه كلام مثل "ما زلتُ فقيرًا، وعندما أصبح غنيًّا سأنفق في سبيل الله".

يقول بديع الزمان: "إنّ ذرة من عمل خالص لهي أفضلُ عند الله من أطنان من الأعمال المشوبة"^(٨٥)؛ فالله سبحانه عندما يزن الأعمال لا ينظر إلى قلتها أو كثرتها بل إلى ما فيها من إخلاص.

(٨٥) بديع الزمان سعيد النورسي: اللمعات، اللمعة السابعة عشرة، الذكرة الثالثة عشر، ص ١٨٢.

والخلاصةُ أنَّ كلَّ إنسانٍ مكلفٌ بالتعبئة في سبيل الله تعالى بما أُوتي، فلو أنَّ لأحدهم فرسًا لوجب أن يلحق بالركب، ولو أن لآخر سيارة للزمه أن يلحق بالجيش كذلك، ولو كان لآخر مع خيله معدات عسكرية فليأخذها ويذهب؛ فيستوي الجميع في الجهاد، ولعلهم يتساوون عند الحقِّ تعالى، فهم في الأجر سواء، ذلك أنهم جميعًا جيَّشوا كل ما يملكون.

ومن المفيدِ التطرُّق إلى أمرٍ آخر: الإنفاقُ الكثيرُ مع الحفاظ على الإخلاص صعبٌ جدًّا، إنَّه صعبٌ ولكنَّ ثوابه جزيلٌ جدًّا بناءً على قاعدة: "الْغَنَمُ بِالْغَرَمِ". أجل، إنَّه لَأَمْرٌ يَأْتِي بالثواب والأجر قطعًا أن يحافظ المرءُ على إخلاصه وصدقه وصلته بربه في فترة المادَّة فيها رفاهيةٌ أو تعدُّ بالرفاهية، بل تفتح أبوابَ الرياء والسمعة.

وللمسألة وجهٌ آخر وهو معيار التضحية في الإسلام، ولا أعلم معيارًا ثابتًا في هذا الموضوع. نعم، جاء في النصِّ مقادير وأنصبة ثابتة للزكاة، تبين أقلَّ ما يكلف به المؤمن بالزكاة وأقلَّ ما يرفع عنه المسؤولية.

وكما لا نستطيع إنقاصَ عدد الصلوات الخمس ولا زيادتها، ولا تغيير أوقاتها أو عدد ركعاتها، كذا فلنفهم مسألة أنصبة الزكاة ومقاديرها، وفي حديث الترمذي: "إِنَّ فِي الْمَالِ لَحَقًّا سِوَى الزَّكَاةِ"^(٨٦)؛ قال شراح الحديث: لرئيس الدولة أن يطلب ذلك من رعاياه عند الحاجة؛ هذا ولم تُطلب الأموال فحسب، بل الأرواح

أيضا يوم صارت سيادة الدولة والأمة عُرضة للخطر، فضحت الأمة بهذا عن طيب نفس؛ إذ يلزم فعلٌ ما يجبُ فعله مطلقاً ولو بأن تنفق أموالاً أضعاف مقادير الزكاة لكيلا يُلم بها هذا الخطر.

ولو تأملنا يومنا هذا من خلال هذا المنظور، لبدا أن الدين المبين انْتَهَك، وثمة محاولات لتنسية الأجيال ذكره الجميل ﷺ؛ ولا وجود على وجه البسيطة اليوم لمجتمع إسلامي شريفٍ محترم له وزنه، ولا مجال للحديث عن وجود مجتمع قوي قادرٍ على حماية المسلم وحقوقه والدفاع عنه ضد القوى الظالمة، وعُتاة القوة الغاشمة.

وحسبنا هذه الأسباب ليقدم المسلم روحه في ضرة، لا نصف ماله أو ماله كله فحسب، وينهض للنضال والكفاح في سبيل الإسلام. أجل، هذا السعي من الأعمال الضرورية التي يلزم القيام بها كي يتغير طالع المسلمين النكد، ويجري كل شيء في مصلحتهم، وهذا لا يتحقق بربع العشر فحسب، فعلى كل من وعى الدعوة أن يعمل بجد لتحقيق التوازن بين الدنيا والعقبى، وأن يشارك هذا الركب بأوجه الإنفاق التي يبذلها بقدر إيمانه واعتقاده زيادة على الحد الأدنى في الزكاة، بل إنه مضطر للمشاركة في هذا الركب؛ وأعتقد أنه ما من نفقةٍ ينفقها اليوم في سبيل الله إلا حظيت بالقبول عند الحق ﷻ، وسيُثاب على الواحد بالآلاف.

أجل، إن كل إنسان مكلفٌ بالخدمة في سبيل الله -بنفسه وماله- بقدر إيمانه، ولا حد لهذا أو هو نسبي، فعلى قدر إيمان الفرد بالله، وشعوره بوجوب رفع اسمه تعالى الأعظم في أفقنا، وبقينه بأن اسمه

الجميل ﷺ شفاء لصدورنا، تكون التضحية بالروح لا بالمال فحسب،
يضحي الفرد ويقول: "آه، لو أن لي أربعين نفساً لضحيْتُ بها" كما
فعل سيدنا عبد الله بن حذافة السهمي ؓ، فلقد أسره الروم وأذاقوه
من صنوف العذاب ما لا يخطر ببال ولا يتخيله عقلٌ أو خيال، فمن
غطسٍ بِقِدْرِ يَغلي ماؤها إلى سحبٍ على الوجه وهو موثق بذيل
الخيال، إلى غير لك من صنوف العذاب... فلما رأوا رباطة جأشه
راحوا يحلمون ويتمنون لو أنه تنصّر، ثم قرّروا قتله، فأخذ يبيكي،
فعجبوا لبكائه وهو من تحمل كل أنواع العذاب تلك، عجبوا أيّما
عجب، ف قيل له: ما يبكيك يا عبد الله، أتخاف الموت؟ فقال ﷺ:

"إِنِّي إِنَّمَا بَكَيْتُ لِأَنَّ نَفْسِي إِنَّمَا هِيَ نَفْسٌ وَاحِدَةٌ، تُلْقَى فِي هَذِهِ
الْقَدْرِ السَّاعَةِ فِي اللَّهِ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ يَكُونَ لِي بَعْدُ كُلِّ شَعْرَةٍ فِي جَسَدِي
نَفْسٌ تُعَذِّبُ هَذَا الْعَذَابَ فِي اللَّهِ" (٨٧).

هكذا فلنكن، نستقلّ ما نفقه كي ننهض بالحقيقة التي نؤمن
بضرورة رفعها ولو أنفقنا كل ما نملك كما فعل ذلك الصحابي
الجليل، فلنشاركه مبدأه: "يا ليتني كان لي من الأنفس عدد كل شعرة
فيّ، ثم تسلط عليّ فتفعل بي هذا".

(٨٧) ابن عسّاكر: تاريخ دمشق، ٢٧/٣٥٨؛ ابن الأثير: أسد الغابة، ٣/٢١٣؛ ابن كثير: التفسير، ٤/٥٢١ (في تفسير الآية ١١٠ من سورة النحل).